نظرية المحاكاة الفارابية وجذورها اليونانية

أ. د. عمر عبدالعزيز السيف(*)

مهاد البحث

تُركِّز هذه الدراسةُ على نظريَّة المحاكاة عند أحد أعلام الفكر الإسلامى، وهو أبونصر الفارابى (المعلِّمُ الثانى). ولن تقف هذه الدراسةُ إلا على جزء يسير من سيرته ولاسيَّما ما اتصل منها بجوانب تأثّره بالفلسفة اليونانيَّة. كما أنَّ الدراسة لن تستقصىَ أوجه تأثّره بالفلسفة اليونانيَّة؛ لأن مشروعه كُلَّه متأثِّرٌ بهذه الفلسفة؛ فهو أكبر تلامذة أرسطو (كما وصف نفسَه) وسيقتصرُ الحديث عن بعض أوجه التأثّر فى المحاكاة؛ وفى بعضٍ مثالٌ للجميع.

وَتُعدُّ نظريَّةُ المُحاكاة عصبَ فِكْرِ الفارابىّ النقدىّ؛ فهو ينطلق منها إلى تفسير نظريته فى الشعر وبقية الفنون. ولا يمكن أن نعد المحاكاة عند الفارابى مجرد جزء من أجزاء الشعر كما قد يتبدَّى؛ ولكن المحاكاة نظريتُه فى الفن والسياسة والاجتماع.

وكنت سأقصر بحثى على رسالة للفارابى بعنوان رسالة فى قوانين صناعة الشعر نشرت فى كتاب فن الشعر لأرسطو، بتحقيق: عبد الرحمن بدوى (١٩٧٣) وكتاب الشعر الذى نشر فى مجلة شعر (١٩٥٩) إلا أن رؤية الفارابى لا يمكن أن تتكشف بدون قراءة كل أعماله، ولا أزعم أننى فعلت ذلك، ولكننى قرأت ما له صلة بموضوع المحاكاة.

وقد اهتم الفارابى بالشعر بوصفه جزءا من مشروعه الفلسفى؛ وظلت آراؤه نظرية، وربما يكون ذلك السبب فى عدم انتشارها أسوة بمن جايلوه وسبقوه؛ فقدامة بن جعفر، على سبيل المثال، أَعْمَل مبضعه النقدى فى القصيدة العربية، ونظَّر منطلقًا منها ومتجهًا إليها على الرغم من تأثّره الشكلى بالمدرسة الأرسطية. أما أبو نصر؛ فقد نظَّر للشعر بوصفه كاشفًا عن خبايا النفس، ومؤثِّرًا فيها، كما أنه يكشف عن خبايا المجتمع وسوءاته.

ولا شك أن الفارابى كان محط اهتمام بعض الباحثين الذين تفاوت اهتمامهم به، وفهمهم لنظريته، إلا أن بعض من تصدوا لدراسة النقد العربى القديم لم يعرضوا للفارابى، ولم يُحلِّلوا آراءه العميقة فى النقد التى أثرت على ابن سينا وابن رشد وحازم القرطاجنى وغيرهم؛ فقد تطرق عبد الفتاح عثمان فى كتابه القيم "نظرية الشعر فى

---

* الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية فى جامعة الملك سعود.

النقد العربى القديم" (١٩٨١) إلى النقاد الفلاسفة (وغيرهم) ولم يتطرق إلى الفارابى الذى كان أحد منابعهم. فى حين أن كتاب ألفت محمد كمال عبد العزيز: "نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين من الكندى حتى ابن رشد" (١٩٨٤) يكشف عن فهم عميق لأطروحات الفارابى؛ وأوجه تأثره بالفلسفة اليونانية، ومواضع تأثيره على الفلاسفة المسلمين. ويعد كتاب مصطفى الجوزو: "نظريات الشعر عند العرب" (الجاهلية والعصور الإسلامية) (١٩٨١) من الكتب التى أنصفت الفارابى؛ وبيَّنت خصوصية مدرسته النقدية القائمة على التأثر الجوهرى بالفكر الأرسطى، ومناحى تأثيره على النقاد المسلمين.

ومع أن فكر الفارابى كان محط اهتمام الباحثين العرب، إلا أن نظريته النقدية لاتزال بحاجة إلى المزيد من الدراسة، وإعادة القراءة؛ لأن الكثير ممن تناولوه مروا على السطح ولم يغوصوا إلى العمق، وبعضهم تجاوزوه تجنُّبًا لتعقيده.

أولا - نسب الفارابى وحياته، وصلته بالثقافة اليونانية

يقول ابن خلكان: هو محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ الفارابى التركى[١]، الحكيم المشهور، صاحب التصانيف فى المنطق والموسيقى وغيرهما من العلوم[٢] .

سافر إلى بغداد، وتتلمذ على يد أبى بشر متى بن يونس الحكيم المشهور، وقال بعض علماء هذا الفن:"ما أرى أبا نصر أخذ طريق تفهيم المعانى الجزلة بالألفاظ السهلة إلا من أبى بشر"[٣].ومن المعروف أن أبا بشر ترجم كتاب أرسطو، ولا ندرى، هل كان أبو بشر حلقة الوصل التى ربطت أبا نصر بأرسطو، أم أن الفارابى عرف كتب أرسطو قبل ذلك ؟

---

(١) واتفق كل من اطلع على ترجمة أبى نصر على أنه كان تركيًا باستثناء ابن أبى أصيبعة الذى قال: إنه كان "فارسى المنتسب". موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبى أصيبعة السعدى الخزرجى، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء (بيروت: دار الثقافة، ١٤٠١هـ)، ج٣، ص ٢٢٣ .

(٢) أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان، وَفَيَات الأعيان وانباء ابناء الزمان، حققه: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، د ت)، ج٥، ص١٥٣ . ووصف الذهبى تصانيفه فى الموسيقى بقوله: إنه من "ابتغى الهدى فيها أضله الله". شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، العبر فى خبر من غبر، حققه وضبطه على مخطوطتين أبو هاجر محمد السعيد بن بسيونى زغلول (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ)، ج٣، ص٥٨ . كما علَّق الذهبى على تصانيف الفارابى كلها بأنه "من ابتغى الهدى منها ضلّ وحار". شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، سير أعلام النبلاء، أشرف على تحقيق الكتاب وخَرَّج أحاديثه شعيب الأرنؤوط، حقق هذا الجزء إبراهيم الزيبق (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ)، ج١٥، ص٤١٧ .

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١٥٤ .

وارتحل أبو نصر بعد ذلك إلى مدينة حرَّان؛ ذكر ابن خلكان أن أبا القاسم القرطبى قد ذكر فى كتاب"طبقات الحكماء" أن الفارابى أخذ "صناعة المنطق عن يوحنا بن حيلان المتوفى بمدينة السلام فى أيام المقتدر"[١]. ويقول الصفدى: إنه ما "أخذ الفلسفة اليونانية إلا من اللغة اليونانية؛ لأنه كان بها وبغيرها من اللغات عارفا"[٢]. ويبدو أن المبالغة طالت بعض جوانب شخصيته؛ فقد ذكر الصفدى أنه يحسن "أكثر من سبعين لسانا"[٣]. وهذه المبالغات طالت الكثيرَ من جوانب علم الفارابى؛ فقد رُوِيَت عن مهاراته فى الموسيقى قصصٌ غير معقولة[٤]. والذى لا شك فيه أن أبا نصر يعد من أهم الفلاسفة الإسلاميين؛ فهو مفكر علمى متعمق، ومحلل ومنظِّر بارع، أرسى قواعد علمية للموسوعات ودوائر المعارف، والتصنيف الموضوعى، والفلسفة، والطب، والسياسة، والموسيقى، وعلم الاجتماع، وعلم الفلك، والاستخلاص، والببليوجرافيا، والترجمة، وغير ذلك من العلوم والمعارف، حتى أصبح رائدًا من رواد الفكر والمعرفة[٥].

وعلى الرغم من ارتباط الفارابى بالمنطق اليونانى، إلا أن اتِّباعه للفلاسفة الإغريق لم يكن أعمى؛ فقد خالفهم فى مواطن غير قليلة؛ إذ نقل الذهبى كتابا لابن رشد عند ترجمته له وُسِمَ بكتاب "ما خالف فيه الفارابى أرسطو"[٦] وهو لا يسير وراء أرسطو -

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١٥٤ .

(٢) صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى، كتاب الوافى بالوفيات، فريقد العجلى الربعى - أبو الليث الزاهد الحموى، باعتناء: محمد عدنان البخيت ومصطفى الخيارى (بيروت: جمعية المستشرقين الألمانية، ١٤١٣هـ)، ج٢٤، ص١٤٤ . وذكر الزركلى أيضا أن أبا نصر "كان يحسن اليونانية وأكثر اللغات الشرقية المعروفة فى عصره" خير الدين الزركلى، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠)، ج٧، ص٢٠ .

(٣) الصفدى، الوافى بالوفيات، ج٢٤، ص١٤٥ .

(٤) تنسب إليه قصة مفادها أنه فَكَّ عيدانا وركبها، ثم لعب بها، فضحك منها كل من كان فى المجلس، ثم فكها وركبها تركيبا آخر وضرب بها فبكى كل من كان فى المجلس، ثم فكها وغير تركيبها، وحركها فنام كل من كان فى المجلس حتى البواب، فتركهم نياما وخرج" . ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١٥٥ . وذكر البيهقى حكاية قريبة لهذه الحكاية للفارابى أيضا فى بلاط الصاحب بن عباد . ظهير الدين أبو الحسن على بن زيد، تاريخ حكماء الإسلام، تقديم وتحقيق ممدوح حسن محمد (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٧هـ)، ص٤٢ - ٤٣ . ورويت هذه الحكاية لغيره. وقد قال الصفدى عن قصته مع سيف الدولة: إن "هذه الواقعة ممكنة" . الصفدى، الوافى بالوفيات، ج٢٤، ص١٤٥ .

(٥) للمزيد من المطالعة لسيرة الفارابى، وجوانب علمه، وما قيل عنه فى القديم والحديث، وأبرز مؤلفاته، وما ألف عنه؛ انظر: أمين سليمان سيدو،"الفارابى فى آثار الدارسين العرب "، مجلة عالم الكتب، مج١٥، ع٢ (رمضان - شوال ١٤١٤هـ)، ص١٨٤-١٩٧ .

(٦) الذهبى، سير أعلام النبلاء، ج٢١، ص٣٠٩ .

كما سبق - وإنما "يعرض لموضوعاته ومعانيه ويتعامل معها ككليات وماهيات مستقلة عن عباراتها وألفاظها ومصطلحاتها وبيئاتها الخاصة التى منها صدرت، ومناسبتها وقائليها ومعان خاصة بلا شوائب مادية"[١]. ويرى إحسان عباس أن صلة رسالة الفارابى "رسالة فى قوانين الشعراء" التى نحن بصددها بكتاب أرسطو "خفيفة" وأن ذلك لأسباب؛ منها: انغلاق بعض أجزاء الكتاب دونه، وأنه - أى الفارابى - غير منصرف للشعر والنقد[٢]. ويمكن إضافة سببين آخرين؛ أولهما: أن الفارابى لم يُرِد أن يتحول إلى شارح لكتاب أرسطو؛ فهو يريد أن يضيف ما يراه. ولا يمكن الحكم على الفارابى بعدم فهمه أجزاء من كتاب أرسطو، إلا عندما يكون اختلافه مع هذا الكتاب أوقعه فى تناقض، إلا أن نظريته تبدو مترابطة ومتماسكة، مع أن انغلاق كتاب أرسطو ليس تهمة للفارابى؛ بل لكتاب أرسطو الذى اتُّهِم بالإيجاز "وعدم الإحكام فى التأليف والغموض؛ لأن أرسطو كان يتخذه مذكّرات للدرس يتكفل هو بشرحها فى أثناء الإلقاء والمحاضرة. فلم يقصد تأليفها قصدًا"[٣].

وسبب آخر قريب بما ذكره عباس، وهو أن عدم انصرافه للشعر والنقد لا يعنى أنه لا يراهما أهلا لذلك؛ ولكن نظريته فلسفية أولا وأخيرًا، وليس من صالح مشروعه أن ينصرف إلى علم مستقصيًا أجزاءه؛ فهو فيلسوف وليس ناقدًا أدبيًا. يقول الفارابى: "إلا أن الاستقصاء فى مثل هذه الصناعة يذهب بالإنسان فى نوع واحد من الصناعة وفى جهة واحدة. ويشغله عن الأنواع والجهات الأخر"[٤]. ونظريته فى المحاكاة لا يُعْمِلُهَا فى الشعر والنقد وحسب؛ بل فى السياسة والاجتماع وغيرهما، ويمكن القول: إنه ناقد ثقافى لو استخرجنا من مشروعه الثقافى نقده للأنساق.

ويرى بعض الباحثين أن آراء الفارابى لم تذع وتنتشر بسبب علاقتها الجوهرية

---

(١) محمد فتحى عبد الله، مترجمو وشراح أرسطو عبر العصور (الإسكندرية: دار الوفاء، د.ت)، ص ١٥٢ .

(٢) انظر: إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبى عند العرب: نقد الشعر من القرن الثانى حتى القرن الثامن الهجرى (بيروت: دار الثقافة، ١٤١٢هـ) ص٢١٦ . ويرى ذلك أيضًا عبد الجبار داود البصرى؛ إذ يشير إلى أن صلة آراء الفارابى فى نظرية المحاكاة بأرسطو "واهية". عبد الجبار داود البصرى، "مكانة الفارابى فى تاريخ نظرية المحاكاة فى الشعر" ضمن كتاب الفارابى والحضارة الإنسانية (بغداد: مطابع دار الحرية، ١٩٧٥-١٩٧٦)، ص٢٩٦ .

(٣) أرسطو طاليس، فن الشعر مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابى وابن سينا وابن رشد، ترجمه عن اليونانية وحقق نصوصه عبد الرحمن بدوى (بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٣) ص٣٨ .

(٤) الفارابى، رسالة فى قوانين صناعة الشعراء، ص١٥٨ .

بالفسفة اليونانية؛ مما جعله - أى الفارابى - مُنَظِّرًا للشعر فى كل اللغات وليس للشعر العربى تحديدًا[١].

ثانيا ـ المحاكاة عند الفلاسفة اليونانيين

لم يكن أرسطو أول من قال إن الشعر محاكاة؛ إذ يرى محمد سليم سالم أن ذاك كان "قولا سائدا فى بلاد اليونان"[٢]، ويبين مصطفى الجوزو أن هذا الحديث عن المحاكاة ورد لأول مرة فى الجزءين الثانى والعاشر من كتاب الجمهورية لأفلاطون، وأردف "وإن كان ينسب الكلام لسقراط"[٣]. فمن الواضح أن هذا المفهوم يسبق أرسطو وربما أفلاطون، وإن كان قد اختمر فى كتبهما. كما أن الرجلين كليهما يؤمنان أن الفن محاكاة، ويختلف مفهوم المحاكاة بين فكريهما.

المحاكاة عند أفلاطون

هاجم أفلاطون الشعراء فى كتابه "الجمهورية" لغوايتهم، ولمحاكاتهم لما عَدَّه أفلاطون مجرد مظاهر شكلية للطبيعة، ولتجاهلهم للمُثُل الحَقَّة التى ليست هى سوى انعكاس لها[٤]. وليست المحاكاة عند أفلاطون إلا ضربًا من اللعب والعبث. وهى تبتعد كثيرًا عن الحقيقة والعقل، ولا تتوجه نحو غاية سليمة، والفن القائم عليها هو، حسب ما نقل أفلاطون عن سقراط، وَضِيعٌ ينكح وضيعة، فيولدها نسلا وضيعًا. "فالفنون جميعا، والشعر منها، مواليد وضيعة فى رأيه[٥]. كما أن الشعر "يغذى ويسقى الأهواء والانفعالات"[٦]. فأفلاطون يحتقر المحاكاة، ويحتقر الفنون جميعًا، وعندما ترتكز الفنون على المحاكاة فإنها تكون أكثر وضاعة، ولا سيما أن "جميع أنواع المحاكاة تفسد أفهام السامعين"[٧].

---

(١) انظر مصطفى الجوزو، نظريات الشعر عند العرب (الجاهلية والعصور الإسلامية)١، (بيروت: دار الطليعة، ١٤٠٨هـ)، ص٢٠٥ .

(٢) أبو الوليد بن رشد، تلخيص كتاب ارسطوطاليس فى الشعر، ومعه جوامع الشعر للفارابى، تحقيق وتعليق: محمد سليم سالم (القاهرة: لجنة إحياء التراث الإسلامى، ١٣٩١هـ)، ص١١ .

(٣) مصطفى الجوزو، نظريات الشعر ١، ص٨٩ .

(٤) مجدى وهبة، معجم مصطلحات الأدب (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٧٤)، ص٢٤١ .

(٥) نقله عن: ديفيد ديتشس، مناهج النقد الأدبى بين النظرية والتطبيق، ترجمة: محمد يوسف نجم، مراجعة: إحسان عباس (بيروت: دار صادر،١٩٦٧)، ص ٣٤ . قد تكون هذه الجملة لسقراط كما نقل أفلاطون، ولكن المهم أن أفلاطون يرى الرأى ذاته.

(٦) ابن رشد، تلخيص كتاب ارسطوطاليس، تحقيق: محمد سليم سالم، ص ١٩ .

(٧) ديفيد ديتشس، مناهج النقد الأدبى، ص ٢٨ .

المحاكاة عند أرسطو

مفهوم المحاكاة عند أرسطو فى "فن الشعر" رَدٌّ على ما قاله أفلاطون؛ فهو يرى أن مبدأ كل الفنون يقوم على محاكاة الطبيعة لا بوصفها شكلا أو مثالا؛ وإنما لما فيها من مظاهر عامة دائمة تصلح لكل زمان ومكان، وذلك ما يميز الفنان أو الشاعر فى رأيه عن المؤرِّخ الذى لا يهتم إلا بدقائق الأمور وحوادثها التفصيلية. ثم إن أرسطو "يقصر المحاكاة على الفنون الجميلة والنافعة على سواء، ولا يُعَمِّمُ المحاكاة فى كل شىء كما فعل أفلاطون"[١]. وبينما يَعُدُّ أفلاطون "محاكاة الفنون الجميلة للأشياء أقلَّ مرتبة من العلم ومن الصناعة؛ لأن فيها بعدا عن إدراك جوهر الحقائق، ولأن جهدها ينحصر فى نقل مظاهرها وخيالاتها الحسية"[٢]، يرى أرسطو "المحاكاة أعظم من الحقيقة ومن الواقع. والفنون عند أرسطو تحاكى الطبيعة، فتساعد على فهمها. فالفن - شأنه شأن النظم التهذيبية والتربوية - يكمل ما لم تكمله الطبيعة. والفن يُتِمُّ ما تعجز الطبيعة عن إتمامه؛ لأنه فى محاكاته يكشف عما ينقصها. والفن يجارى الطبيعة، ويهدف إلى أغراض، وله مناهج وفكرة يقصد من ورائها إلى إكمال ما فى الطبيعة بوسائلها"[٣]. المحاكاة عند أرسطو غريزة فى الإنسان[٤]، وهى التى تميز الفنون الجميلة بوجه عام، ولا يرى أن التقليد نقص فى الإنسان، بل هو أمرٌ غريزى، وجالبٌ للذة.

ومع أن أرسطو لم يعرف المحاكاة، ولم يبين لها وجها غير ما بينه أستاذه؛ إلا أن المعلم الأول رام نقض آراء أستاذه، ودافع عن الفن الذى بَيَّنَ أنه يقوم على المحاكاة كما مرّ، ونفى عن الفن تهمة العبثية والضرر، مؤكدًا أنه نافع ذو غاية سليمة، وأنه ليس "من المفيد أو المرغوب فيه كبت الشعور أو قتل الأحاسيس، وينبغى أن نتحكم فيها"[٥]، كما أنه يؤدى أحيانا إلى التطهير[٦]. فالمحاكاة التى تمثل جوهر الفن فى رأيى هذين الحكيمين تكسب الفن فنيته وتميزه فى رأى أرسطو، وتهبط بالفن إلى درجة الوضاعة والحقارة فى رأى أستاذه الذى مَحَّضَ الفَنَّ والمحاكاة على السواء هذه الصفة.

---

(١) محمد غنيمى هلال، النقد الأدبى الحديث (القاهرة: نهضة مصر، د.ت)، ص ٣٨ .

(٢) محمد غنيمى هلال، النقد الأدبى الحديث، ص ٣٨ - ٣٩، ص ٤٨ .

(٣) محمد غنيمى هلال، النقد الأدبى الحديث، ص ٤٨ .

(٤) يرى أرسطو أن "غريزة المحاكاة طبيعية فينا". أرسطوطاليس، فنّ الشعر، تحقيق: عبد الرحمن بدوى، ص ١٣ .

(٥) ابن رشد، تلخيص كتاب أرسطوطاليس فى الشعر، ص ١٩ .

(٦) شكرى عياد، كتاب أرسطوطاليس فى الشعر، ص ٢٦ .

ثالثا: المحاكاة عند الفارابى

مفهوم المحاكاة

ذكرت ألفت محمد كمال عبد العزيز أنه مما يستوقف "الباحث أن كلا من الفارابى وابن سينا حرص على أن يقدم تعريفا يحدد فيه فهمه للمحاكاة، فى الوقت الذى لا يقدم فيه أرسطو - فى أى موضع من كتابه "فن الشعر" - تعريفًا ما للمحاكاة"[١]. ويؤيد رأى ألفت عبد العزيز، عبدُ الحميد جيده الذى يرى أن التعريف الذى أعطاه الفارابى للشعر يصدق على المحاكاة، ويتهم مصطفى الجوزو الذى قرر أن الفارابى "لا يُعَرِّفُ المحاكاة"[٢] بأنه حكم سريع[٣]. وعندما نبحث عن تعريف واضح للمحاكاة عند الفارابى، لا نجد، إلا أن حديثه عن وسائل المحاكاة، وغيرها من توصيفات للمحاكاة يبين مفهومه للمحاكاة. أما تعريفه للشعر والأقاويل الشعرية فلا يمكن أن يكون تعريفا للمحاكاة، بالمعنى المنطقى أو العلمى لكلمة تعريف.

يقول الفارابى: "ومن هذه المحاكية ما هو أتم محاكاةً، ومنها ما هو أنقص محاكاةً. والاستقاءُ فى الأتم منها، والأنقصُ إنما يليق بالشعراء وأهل المعرفة بأشعار لسان لسان ولغةٍ لغةٍ، ولذلك ما يخلى عن القول فيها لأولئك - ولا يظنن ظَانٌّ أن المغلِّطَ والمحاكى قولٍ واحدٍ، وذلك أنهما مختلفان بوجوه: منها أن غرض المغلِّطِ غير غرض المحاكى؛ إذ المُغلِّط هو الذى يغلط السامع إلى نقيض الشىء حتى يوهمه أن الموجود غير موجود، وأن غير الموجود موجود. فأما المحاكى للشىء فليس يوهم النقيض، بل الشبيه"[٤]. فهو يجعل الأقاويل المحاكية نوعين: أتم، وأنقص، ويخص الاستقصاء بالمحاكاة التامة، كما يخص الشعر والمعرفة به بالمحاكاة الأنقص. وعليه؛ تكون المحاكاة فى الشعر غيرَ تامة، وهو فى هذا يفارق أرسطو من ناحية، ويقاربه من ناحية أخرى: يفارقه فى أن الاستقصاء تستعمل فيه المحاكاة الأتم، مع أن أرسطو ينفى أن تكون المقالة الطبية الموزونةُ شعرًا، لأنها تفتقر إلى المحاكاة، وهذا يعنى أنه ينفى المحاكاة عن الأمور التى فيها استقصاء. ويقاربه فى أنه جعل المحاكاة الشعرية غير تامة؛ لأن أرسطو يجعل هذه

---

(١) ألفت محمد كمال عبد العزيز، نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين من الكندى حتى ابن رشد (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤)، ص ٨٣ .

(٢) الجوزو، نظريات الشعر، ص ٩٥ .

(٣) انظر: عبد الحميد جيده، التخييل والمحاكاة فى التراث الفلسفى والبلاغى (طرابلس: دار الشمال، ١٩٨٤)، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٤) الفارابى، رسالة فى قوانين صناعة الشعراء، ص ١٥٠ .

المحاكاة تخضع لمبدأ الاختيار والضرورة والرجحان[١]. ويفرِّقُ نصُّ الفارابى السابق بين المُغَلِّطِ والمحاكى فى الغرض؛ فالأول يوهم ويقنع القارئ بوجود أشياء لا وجود لها حقيقة، أما المحاكى فلا يقدم الشىء كما هو؛ بل يقدم شبيهه الموجود فى الواقع. فالفارابى جعل المحاكاة مرادفة للتشبيه؛ فابتعد بعض الشىء عن مفهوم أرسطو للمحاكاة؛ لأن المحاكاة فى نظر أرسطو - كما يقول محمد سليم سالم - ابتعدت عن مفهوم أفلاطون حين كانت تعنى التقليد؛ ولم تَعُد "مجرد نقل آلىٍّ، أو يكاد يكون آليًا، ولو بلغ الذروة فى دقة النقل؛ ولأنه إلهامٌ خَلاق، به يستطيع الشاعر أن يوجد شيئا جديدا، على الرغم من استخدامه لظواهر الحياة وأعمال البشر. فالشعر إن هو إلا تبيان وإبراز لكل ما هو دائم وعام وحقيقى فى حياة الإنسان وأفكاره"، ويبين سالم أنه لما ترجم كتاب فن الشعر لأسطو؛ لم يستطع أحد أن يتبين المعنى الدقيق لكلمة محاكاة كما حدده أرسطو؛ فخلطوا بين التمثيل والتشبيه والمحاكاة"[٢].

وبينما يهاجم أحد الفيلسوفين اليونانيين الشعر والمحاكاة، ويدافع الآخر؛ يقف الفارابى موقفا يتسم "بالحياد"[٣]؛ فهو يرى الشعر والفلسفة متوازيين؛ إذ الشعر "لا يقدم حقيقة مشوهة أو ناقصة، وإنما يقدم الحقيقة مخيلة. ومن ثم؛ فإذا كنا وجدنا أفلاطون يحط من شأن الشعز لأنه محاكاة؛ فإن الفارابى يرد للشعر اعتباره، ويقدره معرفيًا؛ لأنه وسيلة من وسائل تقديم المعرفة لاعتماده على هذه المحاكاة"[٤].

ويَعُدُّ الفارابى المحاكاة جوهرَ الشعر؛ يقول: "والقول إذا كان مؤلَّفًا مما يحاكى الشىء، ولم يكن موزونًا بإيقاع، فليس يُعدُّ شعرًا، ولكن يقال هو قول شعرى... وأعظم هذين فى قوام الشعر وجوهره عند القدماء المحاكاة وعلم الأشياء التى بها المحاكاة، وأصغرهما الوزن". فالمحاكاة أهم من الوزن فى الشعر، وعندما يتجرد قول من الوزن، ويتصف بالمحاكاة فإنه يسمى قولا شعريًا، وكأنه لا يخرج عن مملكة الشعر. وعندما يعد الفارابى أصناف أشعار اليونانيين؛ يُعَرِّف الإيفيجاناساوس بأنه "نوع من الشعر أحدثه علماء الطبيعيين، وصفوا فيه العلوم الطبيعية"، ويرى أن هذا النوع "أشد أنواع الشعر مباينة لصناعة الشعر"[٥]. فهو يرى المحاكاة جوهر الشعر وليس الوزن، وينعت

(١) الجوزو، نظريات الشعر ١، ص ٩٤ .

(٢) ابن رشد، تلخيص كتاب أرسطوطاليس، تحقيق: محمد سليم سالم، ص ٥٧ .

(٣) الجوزو، نظريات الشعر ١، ص ٩٥ .

(٤) ألفت عبد العزيز، نظرية الشعر ، ص ١٠٩ .

(٥) الفارابى، رسالة فى قوانين صناعة الشعراء، ص ١٥٥ .

هذا النوع من الشعر بأنه مباين لصناعة الشعراء بسبب ضآلة المحاكاة التى يَعُدُّها جوهر الشعر. ويلوم الجمهور وكثيرًا من الشعراء حيث "يرون أن القول شعر متى كان موزونًا مقسومًا بأجزاء ينطق بها فى أزمنة متساوية، وليس يبالون كانت مما يحاكى الشىء أم لا"[١]. وهذا الرأى مطابق لرأى أرسطو حين يقول:"على أن الناس قد اعتادوا أن يقرنوا بين الأثر الشعرى وبين الوزن، فيسموا البعض شعراء إيليجيين والبعضَ الآخر شعراء ملاحم؛ فإطلاق لفظ "الشعراء" عليهم ليس لأنهم يحاكون؛ بل لأنهم يستخدمون نفس الوزن". ثم يقول: "والواقع أن من ينظم نظرية فى الطب أو الطبيعة يسمى عادة شاعرا"[٢]. ورغم ذلك؛ فلا وجه للمقارنة بين هوميروس وأنبا ذوقليس إلا فى الوزن. ولهذا يخلق بنا أن نسميَ أحدهما (هوميروس) شاعرًا، والآخر طبيعيًا أولى منه شاعرًا. فهو ينتقد إطلاق لفظ "الشعراء" على من يستخدم الوزن دون المحاكاة، كما أن المنظومات العلمية لا يمكن أن يعد ناظمها شاعرًا؛ بل هو عالم وحسب.

فالفارابى الذى جاء بنظريته عن المحاكاة فى وقت كانت النظرية الشعرية العربية تحتاجها؛ استفاد بشكل كبير من رأى أرسطو فى هذا الجانب. فالمحاكاة أدخلت إلى مملكة الشعر ما تجرد من الوزن، وأخرجُ من هذه المملكة المنظومات العلمية التى ظلت تحت مظلة الشعر؛ فالمحك الأول هو المحاكاة، أما الوزن فهو أصغرهما.

يرى الفارابى أيضا أن محاكاة الأمور قد تكون بفعل، أو بقول. والمحاكاة بقول تعنى "أن يؤلِّفَ القولُ الذى يضعه أو يخاطب به من أمور تحاكى الشىء الذى فيه القول. ويلتمس بالقول المؤلَّف مما يحاكى الشىء تخييل ذلك الشىء، إما تخييله فى نفسه، وإما تخييله فى شىء آخر؛ فيكون القول المحاكِى ضربين: ضرب يخيل الشىء نفسه، وضرب يخيل وجود الشىء فى شىء آخر"[٣]. وسنعود للمحاكاة بفعل عند الحديث عن الشعر والفنون الأخرى.

ورأى الفارابى يبين أن التخييل هو هدف المحاكاة (كما سيأتى) مما يجعل المحاكاة القولية تنقسم إلى قسمين: محاكاة تُخَيِّل الشىء نفسه مباشرة، وأخرى تُخَيِّل وجود الشىء فى شىء آخر، وهى المحاكاة غير المباشرة. ويتحدث عن الفكرة ذاتها فى إطار أوسع يشمل المحاكاة القولية والفعلية؛ فيقول:"وكما أن الإنسان إذا حاكى بما يعمله شيئًا ما ربما عمل ما يحاكى به نفسَه، وربما عمل مع ذلك شيئًا يحاكى ما يحاكيه

(١) أبو نصر الفارابى، "كتاب الشعر"، تحقيق: محسن مهدى، مجلة شعر، ع ١٢ (خريف ١٩٥٩)، ص ٩٢ .
(٢) أرسطوطاليس، فن الشعر، ترجمة: عبد الرحمن بدوى، ص ٦ .
(٣) الفارابى، كتاب الشعر، ص ٩٣ .

(فإنه ربما عمل تمثالا يحاكى زيدًا، وعمل مع ذلك مرآة يرى فيها تمثال زيد) كذلك نحن ربما لم نعرف زيدا فنرى تمثاله فنعرفه بما يحاكيه لنا لا بنفس صورته، وربما لم نر تمثالا له نفسه، ولكن نرى صورة تمثاله فى المرآة، فنكون قد عرفناه بما يحاكى ما يحاكيه، فنكون قد تباعدنا عن حقيقته بمرتبتين"[١].

ويبين محمد سالم عند تعليقه على رأى الفارابى هذا فى كتاب جوامع الشعر بأن الفارابى ينقل عن أفلاطون عندما يقول فى كتابه الجمهورية: "فأنت تُطلق اسم المُقَلِّد على صانع شىء يحتل المرتبة الثالثة بالنسبة إلى الطبيعة الحقة للأشياء... وإذن فهذا يصدق أيضًا على الشاعر التراجيدى ما دام مُقَلِّدًا، فهو إذن، ومعه كل المقلدين، يحتلُّ المرتبة الثالثة بالقياس إلى عرش الحقيقة"[٢].

ولكن ألفت عبد العزيز تنقض هذا الرأى؛ لأن"أفلاطون ينظر إلى المحاكاة الشعرية فى إطار نظريته فى المُثُل على أنها تقليد مشوه أو زائف للحقيقة، لأنها - أى المحاكاة - تبعد عن الحقيقة برتبتين، فهى بعبارة أخرى محاكاةٌ لمحاكاة، أى محاكاة لظلال الأشياء فى عالم المُثُل. أما الفارابى فإنه لا ينظر إلى المحاكاة الشعرية من حيث علاقتها بالحقيقة على هذا النحو الذى يجعلها تقليدًا أو محاكاة للمحاكاة، ذلك أنه عندما يفاضل بين طريقتى المحاكاة (المباشرة وغير المباشرة) يبدو منحازا للمحاكاة بالأمر الأبعد... فضلا عن أن الفارابى حين يقارن بين الشعر - كمحاكاة - والحقيقة، فهو يناظر بينهما، ولا يجعل الشعر (أو المحاكاة) ظلالا باهتة للحقيقة، ويبدو ذلك واضحا فى تمثيله لنوعى المحاكاة بالحد والبرهان فى الأقاويل العلمية"[٣]. وتستشهد برأى الفارابى:"... فيكون القول المحاكى ضربين: ضرب يخيِّل الشئ نفسه، وضرب يُخَيِّل وجود الشىء فى شىء آخر كما تكون الأقاويل العلمية؛ فإن أحدهما يعرف الشىء فى نفسه مثل الحد، والثانى يعرف الشىء فى شىء آخر مثل البرهان"[٤].

وواضح أن الفارابى استفاد من أفلاطون فى تقسيمه وليس فى جوهر فكرته، وهو يقرِّرُ فى موضع آخر أن "خيال الإنسان المرئى فى الماء هو أقرب إلى الإنسان فى الحقيقة من خيال تمثال الإنسان المرئى فى الماء"[٥]، ولكن الفارابى لا يقيم المحاكاة

(١) الفارابى، كتاب الشعر، ص ٩٤ - ٩٥ .

(٢) ابن رشد، تلخيص كتاب أرسطوطاليس فى الشعر، تحقيق: محمد سليم سالم، ص ١٧٥ .

(٣) ألفت عبد العزيز، نظرية الشعر، ص ١٠٨ .

(٤) الفارابى، كتاب الشعر، ص ٩٣ .

(٥) أبو نصر محمد بن محمد الفارابى، السياسة المدنية الملقب بمبادئ الموجودات، تحقيق فوزى نجار (بيروت: دار المشرق، ١٩٩٣)، ص ٢٢ .

حسب علاقتها بالحقيقة؛ إذ يرى أن للشعر منطقه الذى يحتم أن تكون المحاكاة بالأمر الأبعد أتمّ، ولو كانت المحاكاة للحقيقة؛ فإن المحاكاة لا بُدَّ أن تكون للأمر الأقرب. وعلاقة الشعر بالحقيقة علاقة مناظرة وليست علاقة شبهٍ باهت. فهو يبين أن الطبيعة الشعرية للشعر تستوجب أن يكون بين أطراف المحاكاة شيء من عدم التشابه لإحداث توتر لغوى انفعالى يهب الشعر فنيته.

ويرى البصرى أن التأثير الأفلاطونى يفوق التأثير الأرسطى فى نظرية الفارابى؛ إذ تأثر الفارابى عند الربط بين الرسم والشعر بأفلاطون، وكذلك الربط بين التشبيه والمرآة إضافة إلى آرائه فى نظرية "الفيض" وغيرها[١]. والحقيقة أن الفارابى كَوَّنَ نظريته المتكاملة، والتى يحمل بعضُها بعضًا من آراء من الصعب تحديد مصادرها؛ لأنه لا يأخذ رأيًا لأفلاطون فينقله، وإنما يُخْضِعُ رأى أفلاطون وأرسطو لنظريته عندما تكون نظريته بحاجة إلى هذا الرأى.

المحاكاة بين الشعر والفنون الأخرى

ناظر أرسطو بين الشعر والفنون الأخرى ليقرر أنها جميعا إنما تصور جوهر الأشياء لا مظاهرها، يرد بذلك على أستاذه أفلاطون[٢]. ويتضح أثر الفكرة السابقة فى الترجمة العربية لفن الشعر لأرسطو؛ حيث يذكر مَتَّى بن يونس أنه "كما أن الناس قد يشبهون بألوان وأشكال كثيرة... جميعها تأتى بالتشبيه والحكاية باللحن والقول والنظم"[٣]. فهذه العلاقة بين الشعر والفنون الأخرى عرفها أصحاب المدرسة الإسلامية الأرسطية، التى كان الفارابى أحد أعضائها؛ فقد ذكر أن محاكاة الأمور قد تكون بفعل أو بقول، كما سبق، والذى بفعل ضربان: أحدهما أن يحاكى الإنسان بيده شيئًا ما (مثل أن يعمل تمثالا يحاكى به إنسانا بعينه أو شيئا غير ذلك) أو يفعل فعلا يحاكى به إنسانًا ما أو غير ذلك[٤]. فالمحاكاة جوهرُ الفنون كلها، وتختلف هذه الفنون فى وسائل المحاكاة وأدواتها. فالاختلاف يكون فى مادة الصناعة؛ فالشعر يصنع باللغة، والرسم بالألوان، والموسيقى بالإيقاعات والنغمات. ويكون الاتفاق فى صورة المحاكاة وأغراضها وتأثيرها على المتلقى كما سيأتى. وليس الهدف أن ينسخ الفنان ويُقَلِّد، بل أن يخلق؛ حيث يقول عن الأقاويل الكاذبة (الشعرية) أن منها "ما يُوَقِّعُ فى ذهن

(١) عبد الجبار داود البصرى، "مكانة الفارابى فى تاريخ نظرية المحاكاة فى الشعر"، ص٢٩٥ – ٢٩٦ .

(٢) محمد غنيمى هلال، النقد الأدبى الحديث (القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر، د.ت)ص ١٥٩ .

(٣) أرسطوطاليس، فن الشعر، نقل أبى بشر مَتَّى بن يونس القُنَّائى من السريانى إلى العربى، حقق نصوصه: عبد الرحمن بدوى (بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٣) ص ٨٦ .

(٤) الفارابى، كتاب الشعر، ص ٩٣ .

السامعين الشيء المُعَبَّرَ عنه بدل القول، ومنها ما يُوْقِعُ فيه المحاكى للشيء - وهذه هى الأقاويل الشعرية"، فليس الهدف نسخها؛ وإنما خلق الشبيه المحاكِى، ولا سيما أن الفارابى منحاز للمحاكاة بالأمر الأبعد.

يقول الفارابى: "إن بين أهل هذه الصناعة وبين أهل صناعة التزويق مناسبة، وكأنهما مختلفان فى مادة الصناعة، ومتفقان فى صورتها وفى أفعالها وأغراضها؛ أو نقول: إن بين الفاعلين والصورتين والغرضين تشابهًا، وذلك أن موضع هذه الصناعة الأقاويل، وموضع تلك الصناعة الأصباغ، وإن بين كليهما فَرْقًا، إلا أن فعليهما جميعا التشبيه، وغرضيهما إيقاع المحاكيات فى أوهام الناس وحواسِّهم". فالفارابى يجعل المحاكاة رابطا يربط الفنون الجميلة ببعضها، حتى وإن اختلفت مواد الصناعة. كما أن الهدف مشترك بين هذه الفنون "إيقاع المحاكيات فى أوهام الناس وحواسهم "وهذا الربط مستمد من المدرسة اليونانية ولا سيما أرسطو الذى ساوى بين الشعراء والرسامين فى المحاكاة[١]، وهو، كما سبق، يجعل المحاكاة خَلْقًا وليس نَسْخًا؛ فيطالب عند كتابة المأساة أن"نسلك طريقة الرسامين المهرة الذين إذا أرادوا تصوير الأصل رسموا أشكالا أجمل، وإن كانت تشابه الصور الأصلية"[٢].

فالفارابى مثل أرسطو يرى الفن محاكاة سواء ما كان شعرًا أو رسمًا، وهو - أى الفن - لا يطابق الواقع، ولكنه يوازيه"[٣]، كما يوازى الرسم الواقع أيضًا؛ فالعلاقة بين الفنون عمومًا والواقع علاقة تشبيه، ولكنه - كما سبق - تشبيهٌ خلاق. ومع ذلك؛ لم يشر الفارابى إلى أن الشعر يمكن أن يتجاوز ما هو ممكن إلى ما ينبغى أن يكون، إلا أن الفكرة الأهم أن المحاكاة عنده "ليست مجرد نقل فوتوغرافى للطبيعة أو الواقع، وإنما هى تصوير لما يمكن حدوثه[٤]، وليس ما ينبغى حدوثه.

غاية المحاكاة

وردت كلمة التخييل بالصورة الاصطلاحية التى عرفت عند الفارابى وغيره بفعل الترجمات عن اليونانية، ومعنى المفردة - حسب عبد الرحمن بدوى - "التجميل"[٥] وترجمها شكرى عياد "التبجيل"[٦]؛ مما يجعل مفردة التخييل "بنت العقل العربى

(١) أرسطوطاليس، فن الشعر، ترجمة: عبد الرحمن بدوى، ص ٨ .
(٢) أرسطوطاليس، فن الشعر، ترجمة: عبد الرحمن بدوى، ص ٤٣ .
(٣) ألفت عبد العزيز، نظرية الشعر، ص ٨٥ .
(٤) ألفت عبد العزيز، نظرية الشعر، ص ٩٥ .
(٥) أرسطوطاليس، فن الشعر ، ترجمة: عبد الرحمن بدوى، ص ٩٤ .
(٦) الجوزو، نظريات الشعر ١، ص ١١٥ .

الإسلامى"[١]، فهى وإن ترجمت عن أرسطو، إلا أن ما بُثَّ فيها من روح، كان عربيًا إسلاميًا.

يجعل الفارابى التخييل غاية المحاكاة؛ فالمحاكاة ضرب من التصوير، والتخييل إيحاء بواسطة التصوير[٢]. فالتخييل يُرَكِّز على الإيحاء أو إحداث الأثر فى المتلقى، أو كما سماه جابر عصفور الاهتمام بـ"سيكولوجية التلقى"[٣]. ولا يقتصر اهتمام الفارابى على سيكولوجية التلقى؛ بل يهتم أيضا بسيكولوجية الإبداع عندما يتحدث عن اختلاف الناس فى التكميل والتقصير، وأن ذلك يعرض "إما من جهة الخاطر، أو من جهة الأمر نفسه"، ويُبَيِّنُ أن الخاطر "ربما لم يساعده فى الوقت دون الوقت، بسبب بعض الكيفيات النفسية"[٤].

والتخييل الذى هو غاية المحاكاة يُحْدِثُ أحد أمرين: اللذة والمتعة، أو التأثير فى سلوك المتلقى، ومن ثم توجيه أفعاله إلى الوجهة التى تُمَكِّنُهُ من تحقيق الغاية القصوى من وجوده، وهى السعادة. وكلتا الغايتين نافعة فى نظر الفارابى. وهذا يربطنا بالخلاف بين أرسطو وأفلاطون بشأن غاية الشعر؛ إذ يرى أرسطو أن اللذة هى هدف الشعر وجميع الفنون الجميلة، وهى لذة سامية؛ فهو يحاول فصل النظرية الجمالية عن النقد الأخلاقى، أما أفلاطون فيهاجم الهجاء من ناحية أخلاقية، لكن أرسطو يأخذ الجانب الفنى: فالفن يجب أن يمثل العام لا الشاذ[٥]، واستمر هذا الخلاف فى العصور الوسطى، بل إنه ظل حتى يومنا هذا.

وقد أسبغ أبو زكريا الرازى على اللهو أو اللذة هدفا فكريًا؛ إذ يقول: فإنَّهُ ينبغى أن يكون نَيْلُنَا وإصابَتُنَا من اللهو والسرور والذة لا أنها لها لنفسها، بل لكى نتجدَّد ونقوى به على العدو فى فكرنا وهممنا اللذين بهما نبلغ مطالبنا"[٦]. فاللذة هدف مرحلىٌّ لهدفٍ أسمى. كما أن اللذة التى تتحقق بالتخييل ليست محصورة فى الشعر؛ بل فى سائر الفنون القائمة على المحاكاة.

---

(١) الجوزو، نظريات الشعر ١، ص ١١٤ .

(٢) الجوزو، نظريات الشعر ١، ص ١١٦ .

(٣) جابر أحمد عصفور، الصورة الفنية فى التراث النقدى والبلاغى (القاهرة: دار المعارف، د.ت)، ص ٥٦ .

(٤) الفارابى، رسالة فى قوانين صناعة الشعراء، ص ١٥٦ .

(٥) انظر: ابن رشد، تلخيص كتاب أرسطوطاليس فى الشعر، ص ١٣ - ١٦ .

(٦) أبو بكر بن محمد زكريا المعروف بالرازى، رسائل فلسفية مضاف إليها قِطَعًا من كتبه المفقودة، تحقيق لجنة إحياء التراث العربى فى دار الآفاق الجديدة (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٠)، ص ٦٢ .

ويحرص الفارابى على جعل اللذة هدفًا ساميًا ينبغى تحقيقه؛ يقول فى حديثه عن الطراغوذيا: "نوع من الشعر يلتذ به كل من سمعه من الناس أو تلاه، يذكر فيه الخير والأمور المحمودة المحروص عليها ويُمْدَحُ بها مدبرو المدن"(١). ولكنه لا يرى اللذة هى الهدف الأوحد، بل إنه يبين خطورة طغيان اللذة والمتعة، واستئثارها باهتمام الناس، ويحدث ذلك "عندما يسود فكر المدن الظالمة أو الجاهلية، الذى يضلُّ السبيلَ إلى السعادة الحقة أو يجهله، فيخفق فى تحقيقها للناس، ومن ثم يصور هذا الفكر الفاسد الأشياء المتعبة على أنها الشقاوة، والراحة وأصناف اللعب على أنها هى السعادات؛ لأن أفعالها تشبه السعادة الحقة، فيتحولون إلى طلب أفعالها، كما يعجز مثل هذا الفكر عن إدراك الدور الحقيقى للفن عامة، وللشعر بشكل خاص. فيظن أن الراحة التى يقدمها جانب اللعب فى الشعر هى المقصد الأول من هذا الفن، ومن هنا يميل هذا الفكر بالناس إلى طلب الأقاويل التى من شأنها أن تستعمل فى اللعب فقط، أو ما يحقق الراحة التى يظن بها أنها هى السعادة الحقة - وذلك ما حدث فى عصر الفارابى - ويترتب على هذا أن يتجه الجمهور نحو أفعال هذا الجانب، وينصرفوا عن الأمور التى يمكن أن ينالوا بها السعادة الحقة. ومن ثم ينحرف الفن - بما فى ذلك الشعر - ويأتى بما تنهى عنه الشرائع. ولهذا أصبح التخييل مرذولا عند أهل الخير فى عصره بشكل يكلفه عناءً كبيرًا فى توضيح أهمية الفن وجدواه للفضلاء وأهل الخير من أبناء عصره"(٢).

هذه الرؤية تُقَرِّبُ الفارابى من أفلاطون؛ إذ يبدو أنه حاول أن يوفق بين رأيه ورأى أرسطو فى هذا الجانب؛ فهو يرى أن التركيز على جانب الإمتاع فى الفن يؤدى إلى تفريغه من قيمته الحقيقية، وربما أدى ذلك إلى انصراف الناس إلى أمور اللهو ظنا منهم أنها تحقق السعادة الحق. وهو يسوغ موقف من سماهم «أهل الخير» فى احتقارهم للتخييل الذى أصيب بالانحراف من جانب المنفعة واللذة معا، إلى جانب اللذة المطلقة. ويذهب الفارابى فى هذا الاتجاه بعيدا حيث يرى أن "التخييل والمحاكاة بالمثالات هو ضرب من ضروب تعليم الجمهور والعامة لكثير من الأشياء النظرية الصعبة لتحصل فى نفوسهم رسومها بمثالاتها"(٣). ولا يجعل الفارابى للشعر غاية تعليمية وحسب؛ بل يرى

(١) الفارابى، رسالة فى قوانين صناعة الشعراء، ص ١٥٣ .

(٢) نقلته ألفت عبد العزيز عن كتاب الموسيقى الكبير للفارابى. ألفت عبد العزيز، نظرية الشعر، ص ١٤٥ .

(٣) الفارابى، أبو نصر محمد بن محمد، فلسفة أرسطوطاليس وأجزاء فلسفته، ومراتب أجزائها، والموضع الذى منه ابتدأ وإليه انتهى، حققه وقدم له وعلق عليه محسن مهدى (بيروت: دار مجلة شعر، ١٩٦١)، ص ٨٥ .

ضرورة اهتمامه بالجانب الأخلاقي، وينتقد الشعر العربي لاعتماده على "النَّهِم والكدية"[١].

فالتخييل عند الفارابي لا يحقق اللذة وحسب، ولا يجب أن يحصر في جانب اللذة؛ بل يجب أن يسمو بالمتلقي؛ لأن الأقاويل "تخيل الحسن في الشيء أو القبح فيه أو الجور أو الخسة أو الجلالة. فإن الإنسان كثيرًا ما تتبع أفعالُه تخيلاتِه، وكثيرًا ما تتبع ظنَّه أو علمَه، وكثيرا ما يكون ظنه أو علمه مضادًا لتخيله فيكون فعله بسبب تخيله لا بحسب ظنه به أو علمه. فلذلك صار الغرض المقصود بالأقاويل المخيلة أن تنهض بالسامع نحو فعل الشيء الذي خُيِّلَ له فيه أمرٌ ما"[٢]. فهذه القوة التخييلية للأقاويل التي تجعل الأفعال تتبع التخيلات حتى لو تعارض التخيل مع الظن أو العلم تُحتِّم، بحسب رأي الفارابي، من ألا تستغل هذه القوة في بثِّ الشرِّ، أو "إثارة الغرائز الضارة"[٣]. وكأنه يحذر مما وصف به أفلاطون الشعر عندما قرر أنه يغذي ويسقي الأهواء والانفعالات التي يجب أن تموت جوعًا، في حين رد أرسطو أنه ليس من المفيد أو المرغوب فيه كبت الشعور أو قتل الأحاسيس[٤]، فقرر أرسطو نظريته الشهيرة "التطهير".

المحاكاة والإقناع

جعل الفارابي المحاكاة أهم عنصر في التفريق بين الشعر والخطابة؛ لأن المحاكاة هي مصدر التخييل كما سبق، والتخييل "مثل العلم في البرهان، والظن في الجدل، والإقناع في الخطابة"[٥]، وهو يجيز أن تستعمل "الخطابة أشياء من المحاكاة يسيرًا، وهو ما كان قريبًا جدًا واضحًا مشهورًا عند الجميع"، والخطيب الذي يستعمل "المحاكاة أزيد مما شأن الخطابة أن تستعمله... لا يوثق به" فهو يطالب الخطيب أن يستعمل

---

(١) نسب ابن رشد هذا الاتهام للفارابي "النَّهِم والكَرِيه". ابن رشد، تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر، ص ٦٧. وترجمها شكري عياد "الكدية" بدلًا من "الكريه". أرسطوطاليس، في الشعر، نقل أبي بشر متَّى بن يونس القُنَّائي، حققه مع ترجمة حديثة ودراسة لتأثيره في البلاغة العربية، شكري محمد عياد (القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٣٨٦هـ)، ص ١٩٥ . واختارات ألفت عبد العزيز ترجمة عياد. ألفت عبد العزيز، نظرية الشعر، ص ١٥٢ . وهو اختيار مناسب، إذ لا معنى لكلمة "كريه" ولا تفيد شيئا، في حين أن كلمة «كدية» تدل على الأدب الذي يحمل هذا الاسم "أدب الكدية" وتدل على الشعر الذي يهدف للتكسب، وإن لم يسم بذلك.

(٢) الفارابي، كتاب الشعر، ص ٩٤ .

(٣) ألفت عبد العزيز، نظرية الشعر، ص ١٥٢ .

(٤) ابن رشد، تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر، ص ١٩ .

(٥) الفارابي، كتاب الشعر، ص ٩٣ -٩٤ .

التخييل من أجل الإقناع، وكأنه يشير إلى ما يسمى "القوة الإقناعية للتخييل"[١]. كما أن الشعر الموزون المتضمِّن قدرًا من المحاكاة هو "قولٌ خطبى عُدِلَ به عن منهاج الخطابة"[٢]. فنحن إزاء مصطلحين جديدين "القول الشعرى" وهو الكلام المنثور الذى تضمن قدرًا من المحاكاة والتخييل دون وزن، و"القول الخطبى" الذى وزن إلا أن الإقناع فيه كان أزيد من القدر المقبول، ولا يُعْرَفُ المقدار المقبول، وهو "أمر لا يوضحه الفارابى"[٣].

ورأى الفارابى استمرارٌ لموقفه من المحاكاة التى يراها أهم عنصرى الشعر؛ إذ إن خلو الشعر من الوزن لا يجعله خارج مملكة الشعر إن كان مُخَيِّلاً، فى حين أن الوزن لا يشفع للقول أن يكون شعرا عندما يخلو من المحاكاة؛ فيصبح "قولا خطبيًا".

فالفارابى يجعل المحاكاة والإقناع وسليتى تفريق بين الشعر والخطابة، ويطلب من الشاعر أن يكون شعره مخيلا لا مقنعا، كما يطلب من الخطيب أن يكون كلامه مقنعا، وأن يبتعد عن المحاكاة فى الشعر - إلا اليسير - لئلا يكون خطيبا "لا يُوْثَقُ به".

المحاكاة طَبْعٌ أم قياسٌ؟

يقسم الفارابى الشعراء إلى ثلاثة أقسام:

١- إما أن يكونوا ذوى جِبِلَّةٍ وطبيعة متهيئة لحكاية الشعر وقوله، ولهم تَأَتٍّ جيد للتشبيه والتمثيل: إما لأكثر أنواع الشعر، وإما لنوع واحد من أنواعه، ولا يكونون عارفين بصناعة الشعر على ما ينبغى، بل هم مقتصرون على جودة طباعهم وتأتيهم لما هم ميسرون نحوه، وهؤلاء غير مسلجسين بالحقيقة لما عدموا من كمال الرويَّة والتثبت فى الصناعة. ومن سماه مسلجسا شعريًا فذلك لما يصدر عنه من أفعال الشعراء".

٢- وإما أن يكونوا عارفين بصناعة الشعراء حتى لا يندَّ عنهم خاصة من خواصها ولا قانون من قوانينها فى أى نوع شرعوا فيه، ويجوِّدون التمثيلات والتشبيهات بالصناعة، وهؤلاء هم المستحقون اسم الشعراء المسلجسين.

٣- وإما أن يكونوا أصحاب تقليد لهاتين الطبقتين ولأفعالهما: يحفظون عنهما أفاعيلهما ويحتذون حذوهما فى التمثيلات والتشبيهات من غير أن تكون لهم طباعٌ

(١) حميد لحمدانى، "الإقناع بواسطة التخييل" مجلة جذور، ج ٤، مج٢ (جمادى الآخرة ١٤٢١هـ)، ص ٥٩ .
(٢) الفارابى، كتاب الشعر، ص٩٣ .
(٣) الجوزو، نظريات الشعر ١، ص ٢٣٦ .

شعرية ولا وقوف على قوانين الصناعة - وهؤلاء أكثرهم زللا وخطأ[١].

يقول مصطفى الجوزو: إن الفارابى لا "يوضِّحُ إن كان المسلجسون يجمعون بين الطبع والتثبت من الصناعة أم يكتفون بالصناعة وحدها"[٢]، فهل يرى الفارابى أشعار العلماء المتصنِّعة جيدة؟ ترى ألفت كمال أن عملية الإبداع الشعرى عند الفارابى "ليست طبعا أو إلهاما، إنها صناعة تعتمد عل الرواية أساسًا، ولها قوانينها ومواصفاتها التى ينبغى أن يُلِمَّ بها الشاعر"[٣].

من الواضح أن الفارابى لا يحفل بالطبع كما يحفل بالقياس، فهو يساوى بين الشاعر المطبوع والمسلجس، وتوحى عباراته أنه يفضل المسلجس على المطبوع؛ يقول عن المطبوع: "وهؤلاء غير مسلجسين: بالحقيقة لما عدموا من كمال الروية والتثبت فى الصناعة". ويقول عن المسلجسين: "وهؤلاء هم المستحقون اسم الشعراء المسلجسين" وكأنه جعل القياس محكَّ المفاضلة بين الشعراء، ثم جعل الطبع ميزة بديلة وُجِدَتْ فى بعض من افتقروا للقياس؛ يقول الفارابى: "وإن المتخلِّف فى الصناعة ربما أتى بالجيد الفائق الذى يعسر على العالم بالصناعة إتيان مثله، ويكون سبب ذلك البخت والاتفاق، ولا يستحق اسم المسلجس"[٤].

فهو لا يحفل بالطبع، ولا يجعله محكًا للموهبة الشعرية، كما أنه اختار لرسالته عنوان "قوانين صناعة الشعراء" مما يُبَيِّنُ أنه ينظر إلى الشعر بشكل منطقى؛ إذ كل "ما له قانون وصناعة يعد قياسا، سواء كان هذا القانون واضحا جليا أم كان ضمنيًا"[٥]. وهو فى هذا يخالف أستاذه أرسطو الذى يرى أن "فن الشعر من شأن الموهوبين بالفطرة أو ذوى العواطف الجَيَّاشة: فالأولون أكثر تهيؤًا للتكيف مع أحوال أشخاصهم، والآخرون أشد استسلامًا للنوبات الجنونية الشعرية"[٦]. وكلتا هاتين الفئتين اللتين تحدث عنهما أرسطو تَصْدُرُ عن طبع فى الفهم النقدى العربى. كما أنه يناقض رأى أفلاطون الذى يؤمن بقضية "الإلهام" إذ زعم فى محاورة "أيون" أن شاعرا خامل الذكر

(١) الفارابى، رسالة فى قوانين صناعة الشعراء، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(٢) مصطفى الجوزو، نظريات الشعر عند العرب (الجاهلية والعصور الإسلامية) ٢ نظريات تأسيسية ومفاهيم ومصطلحات (بيروت: دار الطليعة، ١٤٢٣هـ)، ص ١٨٥ .

(٣) ألفت كمال، نظرية الشعر، ص ٧٢ .

(٤) الفارابى، رسالة فى قوانين صناعة الشعراء، ص ١٥٧ .

(٥) الجوزو، نظريات الشعر ١، ص ٢٥٧ .

(٦) أرسطوطاليس، فن الشعر، تحقيق: عبد الرحمن بدوى، ٤٩ .

يستطيع أن ينشئ شعرا ممتازا إذا أُلهِم[1]، فأفلاطون يؤمن أن الشاعر مجرد وسيط لقوى خارقة.

ومن ذلك يتبين أن رؤية الفارابى فى ذلك ليست تقليدا لأى من الفيلسوفين؛ إذ يؤمن أحدهما بالطبع والموهبة، ويرى الآخر الشاعر خاضعا لقوى خارقة تفوق قوة الموهبة، ومن ثَمَّ يمكن عَدُّ رؤية الفارابى إعادة صوغ - بشكل واع - لأقوال الفيلسوفين.

(١) مجدى وهبة، معجم مصطلحات الأدب، ص ٢٥٣ .

المصادر والمراجع

أرسطوطاليس:

١- فى الشعر، نقل أبى بشر مَتَّى بن يونس القُنَّائى، حققه مع ترجمة حديثة ودراسة لتأثيره فى البلاغة العربية شكرى محمد عيَّاد (القاهرة: دار الكتاب العربى، ١٣٨٦هـ).

٢- فنّ الشعر، نقل أبى بشر متَّى بن يونس القُنَّائى من السريانى إلى العربى، حقق نصوصه: عبد الرحمن بدوى (بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٣).

٣- فنّ الشعر مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابى وابن سينا وابن رشد، ترجمه عن اليونانية وحقق نصوصه عبد الرحمن بدوى (بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٣).

ابن أبى أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبى أصيبعة السعدى الخزرجى:

٤- عيون الأنباء فى طبقات الأطباء (بيروت: دار الثقافة، ١٤٠١هـ).

البصرى، عبد الجبار داود:

٥- "مكانة الفارابى فى تاريخ نظرية المحاكاة فى الشعر،"ضمن كتاب الفارابى والحضارة الإنسانية (بغداد: مطابع دار الحرية، ١٩٧٥-١٩٧٦).

البيهقى، ظهير الدين أبو الحسن على بن زيد:

٦- تاريخ حكماء الإسلام، تقديم وتحقيق ممدوح حسن محمد (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٧هـ).

الجوزو، مصطفى:

٧- نظريات الشعر عند العرب (الجاهلية والعصور الإسلامية)١، (بيروت: دار الطليعة، ١٤٠٨هـ).

٨- نظريات الشعر عند العرب (الجاهلية والعصور الإسلامية)٢ نظريات تأسيسية ومفاهيم ومصطلحات (بيروت: دار الطليعة، ١٤٢٣هـ).

جيده، عبد الحميد:

٩- التخييل والمحاكاة فى التراث الفلسفى والبلاغى (طرابلس: دار الشمال، ١٩٨٤).

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر:

١٠- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، حققه: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، د.ت).

ديتشس، ديفد:

١١- مناهج النقد الأدبى بين النظرية والتطبيق، ترجمة: محمد يوسف نجم، مراجعة: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ١٩٦٧).

الذهبى، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان:

١٢- سير أعلام النبلاء، أشرف على تحقيق الكتاب وخَرَّجَ أحاديثه شعيب الأرنؤوط، حقق هذا الجزء إبراهيم الزيبق (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ).

١٣- العبر فى خبر من غبر، حقَّقه وضبطه على مخطوطتين أبو هاجر محمد السعيد بن بسيونى زغلول (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ).

الرازى، أبو بكر بن محمد زكريا المعروف:

١٤- رسائل فلسفية مضافٌ إليها قطعا من كتبه المفقودة، تحقيق لجنة إحياء التراث العربى فى دار الآفاق الجديدة (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٠).

ابن رشد، أبو الوليد:

١٥- تلخيص كتاب أرسطوطاليس فى الشعر، ومعه جوامع الشعر للفارابى، تحقيق وتعليق: محمد سليم سالم (القاهرة: لجنة إحياء التراث الإسلامى، ١٣٩١هـ).

الزركلى، خير الدين:

١٦- الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠).

سيدو، أمين سليمان:

١٧- "الفارابى فى آثار الدارسين العرب ، مجلة عالم الكتب، مج ١٥، ع٢ (رمضان - شوال ١٤١٤هـ).

الصفدى، صلاح الدين خليل بن أيبك:

١٨- كتاب الوافى بالوفيات، فريقد العجلى الربعى - أبو الليث الزاهد الحموى، باعتناء: محمد عدنان البخيت ومصطفى الخيارى (بيروت: جمعية المستشرقين

الألمانية، ١٤١٣هـ).

عباس، إحسان:

١٩- **تاريخ النقد الأدبى عند العرب:** نقد الشعر من القرن الثانى حتى القرن الثامن الهجرى (بيروت: دار الثقافة، ١٤١٢هـ).

عبد العزيز، ألفت محمد كمال:

٢٠- **نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين من الكندى حتى ابن رشد** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤).

عبد الله، محمد فتحى:

٢١- **مترجمو وشرّاح أرسطو عبر العصور** (الإسكندرية: دار الوفاء، د.ت).

عصفور، جابر أحمد:

٢٢- **الصورة الفنية فى التراث النقدى والبلاغى** (القاهرة: دار المعارف، د.ت).

الفارابى، أبو نصر محمد بن محمد:

٢٣- "كتاب الشعر" تحقيق: محسن مهدى، **مجلة شعر**، ع١٢ (خريف ١٩٥٩).

٢٤- **السياسة المدنية المُلقّب بمبادئ الموجودات**، تحقيق فوزى نجار (بيروت: دار المشرق، ١٩٩٣).

٢٥- **فلسفة أرسطوطاليس، وأجزاء فلسفته، ومراتب أجزائها، والموضع الذى منه ابتدأ وإليه انتهى**، حققه وقدم له وعلق عليه محسن مهدى (بيروت: دار مجلة شعر، ١٩٦١).

الحمدانى، حميد:

٢٦- "الإقناع بواسطة التخييل،" مجلة جذور، ج٤، مج٢ (جمادى الآخرة ١٤٢١هـ).

هلال، محمد غنيمى:

٢٧- **النقد الأدبى الحديث** (القاهرة: نهضة مصر، د.ت).

وهبة، مجدى:

٢٨- **معجم مصطلحات الأدب** (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٧٤).